سليمان بن خلف[1]

ابن سعد بن أيوب بن وارث، أبو الوليد، الباجي، القاضي، الإمام، المتكلم، الفقيه، أديب، شاعر، رحل إلى المشرق والحجاز، ورجع إلى الأندلس، وصنَّف الكتب، ومولده في ذي الحجة سنة أربع أو ثلاث وأربع مئة، وسمع الحديث الكثير، وكان عظيماً في العرب، سُمِّي ذا الوزارتين، وكان على مذهب مالك، وله فيه التصانيف المشهورة، ومن شعره: [من المتقارب]

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً ... بأنَّ جميع حياتي كساعَهْ
فلِمْ لا أكونُ ضنيناً بها ... وأجعَلُها في صلاحٍ وطاعَهْ

واتَّفقوا على فضله وصدقه وثقته وأمانته ودينه وورعه، وأنه تُوفِّي بالأندلس بالمَرِيَّة، وقبره ظاهرٌ يُزار.

السنة الخامسة والسبعون وأربع مئة

فيها شَفَعَ أُرْتُق بك إلى تاج الدولة تُتُش في الأمير مسمار الكلبي فأفرج عنه، وسار أُرْتُق إلى القدس وبها تُرْمُس من قبل أتْسِز، فراسله وطيَّب قلبه، فخرج إليه، وسلَّم البلد، فأخذ له أُرْتُق من تاج الدولة مثل إقطاع القدس وزيادةً من ذلك قلعة صرخد، وكان في القدس خالُ أتْسِز وزوجتُه وابنتُه، فلم يأمنوا المُقام بأرض الشام، فساروا إلى بغداد.

وفي صفر ورد منصور بن دُبيس من أصبهان ماضياً إلى بلده، فانحدر عميد الدولة الوزير إلى مشرعة البصلية تحت بغداد وتلقَّاه، فنزل منصور عن فرسه وقبَّل الأرض، وقام الوزير له وهنَّاه بقدومه، وتقرَّر أن يحضر بيت النُّوبة ليخلع عليه الخليفة بمحضر من القضاة والنقباء والأشراف يوم السبت منتصف صفر، وتقدَّم إليه بالحضور، فبكَّر الناس لذلك، فوجدوا منصوراً قد سار في أول الليل إلى بلده، فعادوا.

(١) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٢٤-٢٢٩ ، ومعجم الأدباء ١١/ ٢٤٦-٢٥٥ . وتنظر مصادر الترجمة في السير ٨/ ٥٣٥ .

وقيل: السبب أنه طُولِبَ بأملاكٍ في بلده أُظهِرَت كتُبُها، فقال: لم يطالَبْ بها والدي فلِمَ أُطالَبُ بها أنا؟ إن كان هذا لأجل الخِلَعِ فما أُريدها. ورحل، ثم أُنفِذَت إليه الخِلَعُ بعد مدة مع مختصِّ الخادم إلى بلده، وأمسك عن الأملاك التي بقُربه.

وقدم خطلج والحاجُّ سالمين في سلخ صفر.

وفي ربيع الأول وردت البشائر من أصبهان بأن السلطان أجاب إلى تزويج ابنته من الخليفة.

قد ذكرنا خروج الوزير فخر الدولة إلى أصبهان في السنة الماضية بهذا السبب ومعه الخِلَعُ والهدايا للسلطان والجماعة وما تقصر عن عشرين ألف دينار، ووصل فخر الدولة إلى أصبهان يوم الخميس ثالث ذي الحجة، وخرج إليه نظام الملك والأمراء والوجوه، واتَّفق وفاةُ داود بن السلطان يوم الجمعة حادي عشره، فلمَّا انقضى الشهر عن الوفاة جارى فخرُ الدولة نظامَ الملك في معنى الوصلة، وكان معه خادمٌ بهذا السبب، فقال لخادم المملكة: عندي[1] في هذا أصلٌ مقرَّر، فاكتبوا إلى أمير المؤمنين ليُجهِّز من يتحدَّث مع والدة الصَّبيَّة، وإما أن يعودوا يحتجُّوا بهذه المصيبة الحادثة، وأمَّا إذا مضت الأيام وسلي هذا الحُزْن[2] فأَجْدَدْتُ خُطاي. فقال فخر الدولة: ما عندي في هذا أمرٌ أقوله، وإنما هذا الخادم حكى لي أنَّ هذا الأمر جرى ها هنا عامَ أول، فأنفذني الخليفةُ لإتمامه والمسير في صحبة هذه السيدة، وأنفذ هذا الخادم ليتولَّى أمرها. فقال مَنْ مع فخر الدولة لنظام الملك: نحن إذا كتبنا نعلم أن الخليفة يردُّ الأمر إليك، فافعل ما تراه. فقام نظام الملك، ومضى إلى خاتون، وقال لها: أمير المؤمنين راغبٌ إليك في الوصلة إلى ابنتك. فقالت: قد رغب إليَّ في ذلك ملك غزنة لابنه، وملوك الجابية، وبذل كلُّ واحد منهم أربعَ مئة ألف دينار، فإن أعطاني أمير المؤمنين هذا القدر كان أحبَّ إليَّ من غيره. فقال النظام: أمير المؤمنين لا يُواجَه بمثل هذا. وجرَتْ مخاطباتٌ انتهت إلى تسليم خمسين ألف دينار عن حقِّ الرضاع وزناً نقداً، وهذه عادة الترك عند التزويج، ومئة ألف دينار نقداً مهراً. فقال فخر الدولة: نحن

---

(١) في (خ): فقال الخادم الملك ما عندي، والمثبت من (ب).

(٢) في (خ): المهر! والمثبت من (ب).

نحصل ها هنا عشرة آلاف دينار، ونُنفِذ من بغداد أربعين ألف دينار، ووقع الرضا بهذا، وشرعوا في تحصيل العشرة آلاف فلم يكن لها وجه، وعرف السلطان، فأمر بتأخير الكلِّ إلى أن ينفذ من بغداد.

وقالت خاتون: إذا أملكتُ ابنتي بأمير المؤمنين فأُريد أن يخرج إلى عمته وأمه وجدَّته ومن يجري مجراهنَّ من أهل بيته ومحتشمي دولته، وأُحضر أنا خواتينَ غَزْنة وسمرقند وخراسان ووجوهَ البلد، ويكون العقد بمحضرٍ منهنَّ، وأُنفذ معها في الجماعة من يصلح على قدر ما يليق بحال أمير المؤمنين وحالنا. فقال فخر الدولة: تُعطينا يدَها على ذلك لتقع الثقة، وشاور النظام السلطان، فأذن في ذلك، وأعطاهم يده، واخترقت خاتون أشياءَ، منها: أنه لا يبقى بدار الخليفة سُرِّية ولا قَهرمانة، وأن يكون مقام الخليفة عندها. وعاد فخر الدولة إلى بغداد في ربيع الأول، فخرج ولدُه والحجَّاب والوجوهُ للقائه، وجاء إلى باب الحُجرة، وأخبر بما لقي من السلطان والنظام من الإحسان والخِلَع والإطلاق وأعطاه السلطان ألفي دينار، وببغداد مثلها، ولولده عميد الدولة مثلَها، وأعطاه الأعلام والكوسات والخيل بمراكب الذهب والثياب المُذْهبة، ولمَّا ودَّع السلطانَ أخذ يده على أنه لا يُمكِّن الخليفةَ من الاستبدال بهم في خدمته، ولم يُفسِح للوزير أبي شجاع في العَوْد إلى بغداد، ورسم له بالمُقام في العسكر، وعاد مختصٌّ الخادمُ الذي كان معه، ونقل ذلك إلى الخليفة، ونسبه إلى فخر الدولة.

وفي هذا الشهر عاد مسلم بن قريش من الشام إلى منزله بالقابوسية من أعمال الموصل.

ذكر السبب:

لمَّا صَعِد إلى الشام طالب الفردوس والي أنطاكية بمال الهدنة وهو ثلاثون ألف دينار في كل سنة، فلم يحمل إليه شيئاً، وكانت أهل أنطاكية قرَّروا معه فَتْحَها وتسليمَها إليه، وكان من سوء رأي مسلم وتخلُّفه أنه كان له كاتب نصراني، فكان يدَعُ عنده مكاتباتهم ثقةً به، وتحقَّق الكاتبُ فتحَ أنطاكية، فهرب إليها ومسلمٌ بحلب، ودفع تلك الكتب إلى الفردوس، فلما وقف عليها أحضرهم، وكانوا ثلاث مئة إنسان، فقتلهم بين يديه صبراً، وكاشف مسلماً، وكتب إلى السلطان بأنه يكاتِبُ صاحب مصر ويُنفِذُ له

الخِلَعَ والأموال، واستقرَّ أنَّ الفردوس يَحمل إلى السلطان في كل سنة مالَ الهدنة، وبعث نظام الملك، فعَتَب مسلم بن قريش، فقال في الجواب: إن كانت الكتبُ مني إلى صاحب مصر توجَّه العَتْبُ عليَّ، وإن كانت منه إليَّ فاحفظوا صاحباً لكم يرغب فيه صاحبُ مصر، لا تُخرجوه عن أيديكم، وارغبوا فيه كما رغب فيه غيرُكم. ثم سار مسلم إلى شَيْزَر وفيها ابن منقذ، فحاصره، واستقرَّ أن يعطيه عشرة آلاف دينار ويرحل عنه، وسار إلى حمص وهي في يد ابن ملاعب، فتحصَّن بالقلعة، فأخذ البلد، وكتب ابن ملاعب إلى تُتُش يستنجده، فكتب إلى مسلم: إنَّ هذا صاحبي مُنتمٍ إليَّ فارحَلْ عنه. فبعث إليه: إنَّ هذا رجل مفسدٌ في أعمال السلطان قاطعٌ سُبُلَها، فإن كان صاحباً لك فخُذْه إليك. فرحل تاج الدولة تُتُش من دمشق يريد ابن قريش، فخاف من عَتْب السلطان وأنه حارب أخاه، فسار إلى صور، وأظهر أنه يريد حصارها، فرجع تُتُش إلى دمشق، وعاد مسلم إلى حمص، فخرج نساءُ ابن ملاعب وحريمُه فتعلَّقْنَ بذيل مسلم، فاستحيى منهنَّ، وذمَّ له وأبقاه على حاله، ولم يُطالِبْه بمال تقرَّر عليه، واستحلفه وحلف له، وعاد إلى حلب، وكان في أعمالها نحوٌ من ثلاث مئة فارس من التركمان بقايا مَنْ كان يخدم بني الزَّوقلية، فاستدعاهم من الأعمال، وأظهر أنه يعرضهم، فلمَّا حضروا على بابه أمر العرب فنكسوهم عن خيولهم وقيَّدوهم، وفرَّقهم في القلاع، وكان ذلك آخر العهد بهم، وقبض على حسن بن مَنيع بن وثَّاب النمري الأعرج صاحب سروج، وأخذها منه.

وقيل: إنه وجد له منطلقات إلى تُتُش، فكان آخر العهد به، وقبض على شبيب ووثَّاب ولدَي محمود بن الزَّوقلية، وطالبهما بتسليم قلعتي أعزاز والأثارب، فسلَّماهما، فأفرج عنهما، وعوَّضهما الخاتونية، وقرقيسيا، ودوراً من أعمال الرحبة.

وفيه ثار رجل بالبصرة يُعرف بعبد الباقي بن الشاموخي، فجمع العوامَّ، وتعرَّض لأماكن الشيعة، منها مسجد البغل، سَدَّ بابه، وفتح له باباً إلى ناحية السُّنَّة، وسمَّاه مسجد عائشة، وجعل فيه حجراً زعم أنها كانت تصعد عليه إذا ركبت الجمل، ولفَّه في ثياب ديباج. وفي محلَّة بني مازن مسجدٌ يعرف بعلي ﷺ، فأخذ ما كان فيه من الآلات، وأمر العوامَّ بغسله وتطهير القبلة، وكان إلى جانبه أشرافٌ مدفونون، فنبشهم

وأحرقهم، وكتب على باب المسجد: أمير المؤمنين معاوية العدل الرضا، ثم الإمام صالح المؤمنين ـ يَزيدُ ابنُهُ ـ وسلَّط العوام، فكانوا يتعرَّضون لأهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وبلغ الخليفة، فقامت عليه القيامة، وأحضر نقيب النقباء الكامل إلى البصرة، فالتجأ ابن الشاموخي إلى الجامع، وأقام يتعبَّد، ورجع عن تلك الأفعال، وثار عليه الهاشميون، وقصدوا قتله، ونهبوا منزله، فدافع عنه أصحابُه، وقُتِلَ بينهم جماعةٌ وهرب، ثم أصلح النقيبُ الحالَ.

وفي ربيع الآخر تكلَّم على العوام رجلٌ قاصٌّ، فقال: هذه المدرسة التي بناها الطوسي ـ يشير إلى نظام الملك ـ مدرسةٌ للدين، مفسدةٌ على المسلمين، ويجب أن تُنقَض وتُدْرَس، ثم هرب إلى دار علي بن عقيل، فبعث عميد الدولة، فكبس دارَ ابن عقيل، وأخذ القاصَّ فأدَّبه وحبسه، وهرب ابنُ عقيل إلى الحريم.

وفيه أمر السلطان بأن يكتب لوحان مضمونهما رفع المكس عن قافلة الحاجِّ صادرة وواردة، وكتب في أول اللوحين اسم المقتدي، وبعده اسم السلطان، وجعل أحدَهما على باب الحلبة، والآخرَ في باب جامع القصر، ولعن من يُغيِّر ذلك أو يُبدِّله.

وفي رجب عاد الوزير أبو شجاع من أصفهان على أن يلازم داره بباب المراتب ولا يركب إلى دار الخليفة، فأخرج له الخليفة الموكب إلى الحلبة لتلقِّيه، ودخل إلى باب الحجرة وخدم، وخرج له التوقيع بما سُرَّ به، وانكفأ إلى منزله، ثم كتب الخليفةُ إلى نظام الملك في معناه، وبقبيح ما فعل معه من منعه هذه المدة.

وفيها سار تُتُش إلى حلب، فأخذ من غلَّاتها ما باعه بثمن بخس عجلةً وسرعةً. قيل: إن ملك شاه كتب له بمال على ابن قريش فمَطَله، فسار بنفسه وباع ما قدر عليه، وأنفذ مسلمٌ أصحابَه لحفظ حلب، فغاظ تُتُش، وأقام بجسر الحديد وما يقارب حلب، وأمر أُرْتُق بك بشنِّ الغارات على حلب، فظفر أصحابُه بطلائعَ من العرب، فأسروا منهم نيفاً وثمانين رجلاً، فقتلهم أُرتق بك جميعَهم، وعاد أصحابُ مسلم إلى القابوسية، ووردت كتب السلطان إلى أخيه بأن يرجع إلى دمشق ولا يُقيم ببلد حلب، وإلى أُرْتُق بك بالعود إلى بابه، ففارقه أُرْتُق بك من جسر الحديد، وسار تُتُش إلى دمشق، فنزل

على فرسخين وحلَّ بها، وضعُفَتْ نفسُه لمفارقة أُرْتُق بك، وعبر مسلم في العرب والأكراد وراء تُتُش إلى دمشق، فنزل على فرسخين منها.

وفي يوم الخميس ثالث شعبان جلس مؤيد الملك بن نظام الملك للعزاء بأخيه الأكبر جمال الملك، وركب إليه الوزير فخر الدولة وولده عميد الدولة، وكان جمال الملك قد خرج من نيسابور في رجب لاحقاً بالسلطان وابنِه، فعرض له قولنج كان يعتاده دائماً، فنزل عن فرسه في خَرْكاة، واستدعى والدته من نيسابور، فلمَّا وصلت إليه قضى نحبَه، فدخلت عليه وكمُّه على وجهه، فظنَّت أنه نائم، فلمَّا طال عليها يَقَّظَتْه وكشفت عن وجهه فإذا به ميت، فخرجت حاسرةً قد حثَتِ الترابَ على رأسها، فلمَّا شاهدها أصحابُه وغلمانُه جزُّوا شعورهم، وحذفوا[١] خيولهم، وطرحوا ذلك على باب الخَرْكاة، فكان كالميل الأسود، وأُعيد إلى نيسابور فدُفن بها، وكان قد خرج منها خروج الملوك، فرجع كما قال[٢]: [من مجزوء الرمل]

رُحْـنَ فـي الـوشْـيِ وأصـبَـحْـ ... ـنَ عـلـيـهـنَّ الـمُـسـوحُ
كـلُّ نَـطَّـاحٍ مـن الـدَّهْـ ... ـرِ لـه يـومٌ نَـطـوحُ

وقيل: إن السلطان أراد قتله؛ لأنه كان قد استولى على خراسان، فراعى قلب والده، فدسَّ إليه مَن سَمَّه.

وفيها فتح ابن قُتُلْمِش حِصْنَ طَرَسُوس من الروم، وبعث إلى ابن عمار وقاضي طرابلس يستدعي لها قاضياً وخطيباً.

وفي يوم الجمعة لخمسٍ إن بَقِينَ من شوال عبرَ قاضٍ أشعريٌّ ـ يُقال له: البكري ـ إلى جامع المنصور، ومعه الشِّحنة والأتراك، والعجمُ بالسلاح، وكان يذكر أنه من ولد أبي بكر رضي الله عنه، وكانت فيه حِدَّةٌ وجرأةٌ وطيشٌ وخِفَّة، وورد بكتب نظام الملك تتضمَّن الإذن له في الجلوس بالمدرسة النظامية والكلام بمذهب الأشعري، فجرى بينه وبين أصحاب ابن الفراء الحنبلي سيئاتٌ ورجم، وآل أمره إلى أن خرج من بغداد سابع عشر شوال إلى عسكر السلطان، وأُعطي من الديوان مئتا دينار وخمسُ قطع من الثياب،

(١) من الحَذْف: وهو القطع. اللسان، (حذف).

(٢) قائله أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص٩٨ .

ولُقِّب علمَ السنة، وكان سفيهاً طرقياً، ظاهرُ أحواله الإلحاد، وأغرى بسبِّ الحنابلة، وقال: هؤلاء يقولون: لله ذَكَر. فرماه الله في ذَكَرِه بالخبائث، فمات ودُفِنَ بمشرعة الزوايا عند الأشعري يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى سنة سبع وسبعين.

وفيها رجع السلطان من بَلْخ وكان قد سار لقتال أخيه شهاب الدين تُتُش، ولمَّا وصل بَلْخ وجد الغلاء العظيم، وتعذَّرَ الأقوات والعلوفات، ووصل القلعة، وتعرف بدركز، وهي على سن رأس جبل، ومساحة الموضع ـ على ما قيل ـ أربعة فراسخ، وبين يديها ساحة كبيرة يطيف بها جبل شامخ، والعسكر في تلك الساحة، وفي الجبل بابٌ يُدْخَل منه إلى الساحة، ولم تكن له حيلة في الوصول إلى تلك الساحة، فجاءه تركماني ودلَّه على مكان يصل منه إليها، فركب السلطان، وجاء إلى ذلك المكان، وأشرف على الساحة ومعسكر تكش بها، فصعد تكش ومن معه إلى القلعة، وجاء أصحاب السلطان فنزلوا في الخيم، ووقع القتال، وأُسِرَ جماعةٌ من أصحاب السلطان، فأحسن إليهم، فدخلوا بينهما وأصلحوا الحال، على أن يردَّ عليه تِرْمِذ، ويعطيه تكش ولدَه رهينة، وظهر تكش من القلعة على بعد، وخدم السلطان، ورضي عنه، ورحل عن المكان، وسبب رحيله وصلحه كثرة الثلج والغلاء وعدم الأقوات، ولمَّا قرب السلطان من سرخس جاءه أخو طغان شاه صاحب تلك البلاد وخدمه، ولاطفه بالهدايا، وشرب عنده، فقال له على سكر: يا سلطان، أنت ما تعطي إلَّا لمن يخرج عليك ويعصيك، ومن يطيعك ويتقرَّب إليك تحرمه وتمنعه ـ يعني أخاه تكش ونفسه ـ فغضب السلطان من قوله، وقبض عليه، وبعث به إلى أصفهان، وراسل القلعة التي فيها والدته وأولاده وأمواله ليأخذها، فامتنعت أمه من تسليمها، ثم سلَّمتها بعد ذلك.

وفي ذي الحجة أخرج الخليفة أبا إسحاق وشافهه بما يقوله ـ وهو أبو إسحاق الشيرازي ـ ممَّا يجري على البلد وأهله من العهد، فاستشعر الوزيرُ وولدُه من ذلك، وخافا أن تكون الرسالة في معناهما، فقام ولد الوزير من الديوان، ومضى إلى داره، وأغلق بابَه، فأرسل الخليفةُ إليه وطيَّب قلبه، فعاد إلى الديوان على كُرْهٍ وفي نفسه ما فيها، وأقام أبوه في داره على كُرْهٍ أيضاً، وقد كان كتب إلى أصفهان يسأل إنفاذَ مَنْ يخرجه من موضعه ويحمله إلى مقصده.

وفيها سار مسلم بن قريش إلى دمشق فحصرها، وعاد عنها ولم يظفر بطائل.

وفيها تُوفِّي

ابن ماكولا[1]

علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علكان بن محمد بن دُلَف بن القاسم بن علي، أبو نصر، الأمير، الحافظ، العجلي، أصله من جَرْباذقان من نواحي أصفهان، ولد ببغداد، ونشأ بها، ووَزَر أبوه هبة الله للقائم، ووُلِدَ أبو نصر خامس شعبان سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة بعُكْبَرا، وسمع الحديث الكثير، وصنَّف المصنفات الحِسان، منها: «الإكمال» و«مستمر الأوهام على ذوي النُّهى والأحلام».

وقال أبو عبد الله الحميدي: ما راجعتُ الخطيبَ في شيءٍ إلَّا وأحالني على كتاب، ولا راجعتُ ابنَ ماكولا في شيء إلَّا وأجابني من حفظه، كأنما يقرأه من كتاب.

وتُوفِّي في هذه السنة. وقيل: سنة تسع وسبعين. وقيل: سنة سبع وثمانين. وقيل: سنة نيِّفٍ وسبعين وأربع مئة.

وخرج إلى خراسان ومعه غلمان له تُركٌ أحداث، ومالٌ كثير، وخيلٌ وثياب، فوثبوا عليه بجرجان ـ وقيل: بخوزستان ـ فقتلوه، وأخذوا الجميع، وهربوا، وطاح دمُه هدراً.

ومن شعره: [من الطويل]

أقولُ لنفسي قد سلا كلُّ عاشقٍ ... ونقِّض أبوابَ الهوى عن مناكِبهْ

وحبُّكِ لا يزدادُ إلَّا تجدُّدا ... فيا ليتَ شعري ذا الهوى من مُناكَ بِهْ

وقال [من الطويل]:

ولمَّا توافَينا تباكتْ قلوبُنا ... فمُمسِكُ دمعٍ يومَ ذاكَ كساكِبهْ

فيا كَبِدي الحرّى البَسي ثوبَ حسرةٍ ... فِراقُ الذي تهوينَهُ قد كساكِ بهْ

وقال: [من الوافر]

---

(١) تاريخ دمشق ٥٢/ ١٥-١٧ (نشر مجمع اللغة العربية)، ومعجم الأدباء ١٥/ ١٠٢-١١١، والمنتظم ١٦/ ٢٢٦. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٥٦٩.

obeikandi.com

أليسَ وقوفُنا بديارِ هندٍ وقد سارَ القَطينُ من الدواهي
وهندٌ قد غدَتْ داءً لقلبي إذا صدَّتْ ولكنَّ الدوا هي

وقد روى عنه الأئمة، ولم يتكلَّم فيه غير عبد الوهَّاب الأنماطي، فقال: العلم يحتاج إلى دين. وكان يتَّهمه بالغلمان.

السنة السادسة والسبعون وأربع مئة

فيها في يوم الجمعة لخمسٍ بَقِينَ من صفر خرج توقيع الخليفة إلى الوزير عميد الدولة، فعزله عن الوزارة، نسخته:

لكلِّ أجلٍ كتاب، انصرِفْ من الديوان إلى دارِك، وخَلِّ ما أنت منوطٌ به من نظرِك.

فوصله التوقيع وهو في داره بباب عمروية لم يمضِ إلى الديوان بعد.

قال عميد الدولة: فلمَّا قرأتُه قلت: السمع والطاعة، قد كنتُ في الديوان متحملاً للأعباء، وأنا الآن متوفِّرٌ على الدعاء، وكان قد جاءني ليلةَ الجمعة توقيعٌ يتضمن الشكرَ لي والإحماد، والثقةَ والاعتداد، وما يجري هذا المجرى من الجميل الذي ما أعرف سببُهُ، فارتبتُ به، وتعجبتُ منه، وما زلتُ مُفكِّراً فيه ليلتي، فلما جاءني هذا التوقيع الثاني علمتُ أن هذاك لهذا، وحضرني بعض الخواصِّ عُقيب توقيع العزل، فأشار عليَّ بالمقام والتوقُّف والتثبُّت وترك الانصراف، فزاد ارتيابي، ونهضتُ من وقتي، واتفق وصول تارَح الحاجب المنْفَذ من جهة السلطان بكتب منه إلى الخليفة؛ إمَّا أن تستخدمنا وتُوفِّينا حقوقَ الخدمة ورجوعَنا إلى المألوف منه، أو الإذنُ لنا بالانصراف إليه والقدوم عليه، وكان والدي كتب إليَّ هناك بأننا مُتَّهمون بكلِّ ما يكون منه اعتراضٌ للديوان والحاشية، فإمَّا أن تزول هذه التُّهم عنا، وإمَّا أن ننتقل إلى أصفهان فنُقيمَ هناك في ظلِّ السلطان، وكتب السلطان إلى والدتي وإليَّ بالمبادرة إليه إذا لم يقع من الخليفة إيثار بخدمتنا، ولم يبقَ مع العزل للكتب وإيصالها حكم، فخرجتُ أنا ووالدتي وإخواني وأهلُنا، ورحلنا بعد أن اجتمع الحاجب الوارد وشحنةُ بغداد والعميدُ والعجمُ على باب عمورية بالسلاح، حتى خرجنا بأموالنا وأهلنا من غير استئذان الخليفة في ذلك ولا إعلامٍ به، وتعجَّب الناسُ من هذه الحال، ونزلنا في دار المملكة.